

الشكالية الأخبار وأزمة الكتابة التاريخية

في لقاء مع الدكتور محمود إسماعيل

حاوره: إدريس هاني



ينطلق المحاور من التساؤل حول مكمن الأزمة التاريخية، وهل هو المؤرخ أم التاريخ؟ ليتابع أسئلته حول كتابتنا للتاريخنا في متن الواقع قبل صفحات القرطاس. ويعرج في ثنايا الحوار على موضوعات عدّة لها صلة بالإشكالية ومن ذلك وقوفه عند محاولات تأريخنا عند برنارد لويس وغيره.

إدريس هاني: في البدء، دعنا نتساءل: هل هي أزمة تاريخ أم أزمة مؤرخ؟

الدكتور اسماعيل: الفصل بين الطرفين غير مبرر؛ لأن المؤرخ يؤرخ على الواقع، وفي نفس الوقت هو ابن لهذا الواقع، وخصوصاً طبيعة هذا الواقع في هذه المرحلة: مرحلة الانحطاط التي لم يشهدها العرب من قبل. فالأزمة ليست أزمة، بل هي كارثة، تركت بصماتها على الجميع بدرجة أو بأخرى.

فالواقع المعقد مختلط وينعكس هذا على عقلية المؤرخ، والمؤرخ ترمومتر يتأثر بالحرارة والبرودة، وعلى ذلك نجد إذا كان الواقع يرجع على كارثة فمن المنطقي جداً أن يضطرب المؤرخ في أداء وظيفته.

فمثلاً.. على الرغم من أن الأزمة واضحة تماماً، إلا أن رؤى المؤرخين حولها تختلف وتتضارب، وخاصة في مسائل التحليل والتأويل والتعديل، حيث يوجد من المؤرخين من يختلف حتى في إدراك درجة الكارثة، ويجد من ينفي وجود أزمة أصلاً.

لكن ليس معنى هذا أن العملية عبئية؛ فالمؤرخ - بطبيعة عمله - لن ننتظر منه الكلمة الفصل أثناء الأزمة نفسها؛ لأن ما يجري لم يتحول بعد إلى تاريخ، بمعنى أن مرحلة الفوران لم تُقضِ إلى حالة نهائية ثابتة، وعندما يحدث ذلك يأتي دور المؤرخ.

أما الأزمة الراهنة، فهي ضمن اهتمامات المشتغلين بالعلوم السياسية؛ حيث يقدم تحليلات مرتبطة بمحりات الأحداث نفسها، لكنه لا يستطيع أن يصل إلى القول الفصل. وإذا كنا نتحدث عن أزمة مؤرخ، فهي أزمة تشمل النخبة المفكرة كلها، وهذا يفسر الحال العام في مقاربة ما يجري.

إدريس هاني: مع أن التاريخ صناعة عربية، إلا أن أزمة القراءة التاريخية ظلت لغة لصيقة بالعقل العربي. هل أنتـمـ كمؤرخـ هـ زلتـمـ علىـ أـهـلـ فـيـ آـنـ يـصـحـوـ الخطـابـ التـارـيـخـيـ العـرـبـيـ يـوـمـاـ مـنـ سـبـاتـ المـأـزـقـ الأـسـطـرـيـوـغـرـافـيـ؟

الدكتور اسماعيل: هذه دعوى خاطئة، وهي ليست جديدة؛ فهي مرتبطة بالنزاعات العنصرية والتقوّق العرقي، وهي أحياناً درجات التفكير؛ فالله لم يعط لأحد قدرة أكثر من آخر، فهي مسألة ظروف ومعطيات.

وهذه القضية مرتبطة بفکر الجابري الذي يقول: «إن العقل العربي عقل

مستقبل».

وهي نفسها أخذها عن الاستشراق الكلاسيكي الذي كان أساساً يقدم معلومات للاستعمار، وكان يستهدف الترويج لمركزية الحضارة الأوروبية، علماً أنَّ هذه الحضارة باعتراف الغربيين أنفسهم (وأي حضارة) ما هي إلا خطوة على طريق التقدم البشري، ولكي تتقدم وتطور لا بد من أن تستوعب الرصيد الحضاري السابق، فهي لم تبدأ من درجة الصفر.

أيضاً. هناك الفكر الفاشتي عموماً الذي يصنف الناس على أساس درجات عقلية، فالتفاضل العرقي لا وجود له أصلاً؛ بدليل أنَّ الحضارة العربية في العصور الوسطى هي التي كانت تقود العالم.

فالجابري أخذ الأفكار وأطلقها على العقل العربي ووصفه بأنه بياني عرفاني تهويدي غير عقلاني. والعالم العربي - رغم الظروف الآنية - يوجد فيه عقول تناطح عقول الأوروبيين والأمريكيين. فإذا كان العالم العربي يعني أزمة فكر، فهو نتيجة طبيعية لأزمة واقع، وليس هناك واقع ثابت إلى الأبد، بل إنَّ قانون الحركة والصيورة يجعل من التغيير أمراً حتمياً. لكن متى؟
هذا ليس في يدنا، ويوم يتغير الواقع سيتغير الفكر، وهذا يذكرنا بمقولتنا عن سوسيولوجية الفكر.

إدريس هاني: هل ينظر المؤرخاليوم إلى التحدى العربي.. وهل العولمة من شأنها المساهمة في نقد الوثيقة أم أنها ستزيد من تعوييم الحقيقة التاريخية؟

الدكتور إسماعيل: التحدى العربي للمؤرخ هو هاجسه وشاغله، بل إنَّ فكرة التحدى والاستجابة هي مقوله مؤرخ (توبيني)، وهي الفكرة التي تؤدي إلى الحراك التاريخي؛ ولذلك يقول: إنَّ العقل البشري يعمل بكل طاقاته وقدراته وملكاته عند مواجهة التحدى.

فعلى سبيل المثال، الأزمة العربية الراهنة عندما يقرأها المؤرخ يقرأها على أنها تحدي؛ لذلك هو معنى بالاستجابة لهذا التحدى، ولحظة الاستجابة هذه هي لحظة تاريخية (historic)، لحظة مفصلية؛ لأنها هي توأم الانتقال من حال مختلف إلى حال أرقى. من هنا يهتم المؤرخ بتلك الحالات المفصلية باعتبارها تشكل البدايات للتغيير.

أما بالنسبة للعولمة، فهي مصطلح غير بريء، فيمكن فرائتها على أنها شيء إيجابي، بمعنى التواصل بين الحضارات والمزيد من التعرف على مزيد من التقدم. لكن الذي يحدث هو أنها مصطلح مراوغ يستخدم كغطاء لمشروع اليمنة الأمريكية، ويفهم هذا من خلال طموح هذه اليمنة إلى فرض الثقافة الأمريكية على العالم، وهذا غير ممكناً في حد ذاته، خصوصاً إذا كانت هذه الثقافة . ثقافة الكاوبوي . غير مؤهلة تكون ثقافة عامةً للبشرية.

وواجب المؤرخ أن يفطن إلى تلك المغالطة؛ لأنَّ الخبرير بالثقافات وتراثها الطويل في عمر البشرية. وقراءة استقرائية لطبيعة العلاقة بين الثقافات تؤكِّد الاختلاف النوعي، وهو أمر إيجابي؛ لأنَّه يعني التعددية.

وهنا تبرز المفارقة الأمريكية حول العولمة: كيف تتحدث عن الديموقратية على أنها وعاء التعددية وفي الوقت نفسه تلح على أنَّ تسود ثقافتها الأحادية ليُجْبَ كلَّ الثقافات؟! كذلك بالنسبة للمؤرخ، إنَّ العولمة لم تختبر بعد، وبالتالي لم تصبح تاريخاً بعد لكي يتعامل المؤرخ معها، لكنَّها البدايات تؤكِّد بطلانها باعتبارها إيديولوجياً ذرائعيَّة؛ أي تبريرية للهيمنة.

إدريس هاني: لقد كاد التاريخ أن يصبح صناعة شعرية تحل محل هادئه الشعر هجواً ومديحاً. قبل عصر التدوين. ما قصة العقل العربي مع الشعر والتاريخ؟

الدكتور إسماعيل: توجد مبالغة في الطرح؛ فالطرح بشكله الحالي طرح شعري أكثر منه تاريخي. ولكننا لا نتصادر على أنَّ التاريخ وثيق الصلة بالشعر كأهم تجليات الأدب العربي.

ففي العصر الجاهلي كان الشعر (وزارة الثقافة والإعلام)، والشعر الجاهلي في غياب المادة الوثائقية والكتابات التاريخية تأسيساً على مقوله خطأة بناءً على كلمات الفقهاء بأنَّ الإسلام يجُبَ ما قبله، والنظرية الدونية لما قبل الإسلام، عزف المؤرخون عن تاريخ ما قبل الإسلام، وأصبح الشعر الجاهلي يمثل التاريخ. فالشعر هو ديوان العرب كما يقال، والتاريخ نفسه ينظر إليه باعتباره نوعاً من الأدب؛ فهناك الأدب التاريخي. والعلاقة بين التاريخ والأدب عموماً علاقة تكاملية وليس متضادة.

فالأدب يمثل الرؤية الوجودانية للواقع، ورغم إسرافه في الخيال، إلا أنه

ينطوي على حقائق، بينما التاريخ يمثل القراءة العقلية للواقع في الماضي.

أما أن يتحول التاريخ العربي بالذات إلى مدح وهجاء: فليس ذلك ذنب التاريخ، بل ذنب المؤرخين بما ينمّ عن تدني المستوى.

وذلك الظاهرة موجودة عند المؤرخين العرب بوجه خاص، ولها جذورها التاريخية وأبعادها الآتية الواقعية؛ فحالة التشرذم العربي والصراعات العربية تحول المؤرخ من عين موضوعية لرصد حقائق الواقع إلى لسان سليط هجاء، أو مأجور مادح.

وهذا . في نظري . ليس تأريحاً بحال من الأحوال؛ لأن أهم شرط للمؤرخ هو الموضوعية: لماذا وكيف جرى الكشف عن الواقع بسلبياته وإيجابياته، أما أن يتحول لرجل دعاية، فلا يجوز له أن يتشرف بلقب «مؤرخ».

إدريس هاني: إذا كانت الإيديولوجيا صاحبة الجلالة في كل تفكير ولو تعلق الأمر بالخطاب التاريخي: فعل وظيفة المؤرخ ستصبح معقدة؟

الدكتور إسماعيل: أولاً الإيديولوجيا ليست سبباً كما يجري التعامل معها في الخطاب العربي المعاصر، بل إنها تمثل درجة راقية من درجات التفكير؛ إذ هي حصاد واقع المجتمع بكل جوانبه منظومة في تصور استقرائي لهذا المجتمع. ولقد تصدّى كارل بوير لنقد مفهوم الإيديولوجيا لا على الأساس المعرفي، وإنما لأنه كان يحاول هدم المادية التاريخية. وماركس نفسه لم يهاجم الإيديولوجيا ذاتها، بل هاجم الإيديولوجيا الألمانية لخصائصها السلبية.

ولا يوجد مشتغل بالفكر . خاصة في العلوم الإنسانية والاجتماعية . إلا وأن يكون متأدلاً، وحتى الذين يرفضونها باعتبارها معوقاً للمعرفة متأدلون شاءوا أم أبوا.

أما عن وظيفة المؤرخ: فهي معقدة أصلاً؛ لأنّه لا يتعامل مع واقع مصمت، بل هو واقع متعدد الجوانب والأطراف متعدد الإيديولوجيات، ومن ثم لا بد من أن يكون متمرساً، وهو رصد الحقيقة التاريخية بمعرفة الإيديولوجيات السائدة.

فعليه . مثلاً . أن يضع في اعتباره ثقافة السلطة وثقافة المعارضة، عليه أن يقف على مقاصد القوى المتصارعة وغاياتها باعتبار التاريخ هو الصراع بين هذه القوى.

ومن ثم، فالإيديولوجيا بالنسبة للمؤرخ الفطن تشكل عاملًا مساعدًا إذا أعيته السبل في الوصول إلى الوثائق، لكن المؤرخ غير الفطن تشكل الإيديولوجيا عبئاً جديداً يحول بينه وبين مجرد رصد الواقع.

ما يتعلّق بأدلة المؤرخ نفسه: فهي تشكّل حاجزاً غير منظور وغير مباشر دون الوصول إلى الحقيقة؛ لأنّه يقرأ الماضي من خلال تصوّره الذاتي، فالحقيقة منوطـة برؤيته لها، وليس بالضرورة أن تكون صادقة، وهنا يأتي الاعتساف: فتحت تأثير منظوره الإيديولوجي يسكت عن وقائع، وينبع أخرى حسب هذا المنظور. وقد كان هذا هو السبب وجود الكثير من المسكون عنه؛ لأنّ هذا المسكون عنه ينافق تصوّره الإيديولوجي، وهذا يظهر أكثر في مقولـة الذاتية.

فالمؤرخ الأمين، وهو يتقدّم لواقعـة تاريخـية عليه أن يترك جانبـاً ذاتـيـه التي هي نتـاج وضعـه الطـبـقيـ، ومذهـبه الدينـيـ وعقـيدـتهـ ورؤـيـتهـ العامةـ للكـونـ والـحـيـاةـ.

إدريس هاني: كيف تعالجون أسطورة الحياة. والمفهوم ليورديه طبعاً. في الكتابة التاريخية؟

الدكتور إسماعيل: الوصول إلى الحياد والتجرد الكامل لا يمكن أن يتحقق إلا بالنسبة للذات الوعائية المتسامية، والتي هي نتاج ثقافـات عـربـيـةـ تقـضـيـ إلى تـأـصـيلـ ما يـمـكـنـ أنـ يـسـمـىـ بـ «ـنـزـعـةـ الـيـوـمـانـيـةـ»ـ (ـالـإـنـسـانـيـةـ الـعـامـةـ).

في غياب ذلك يصبح الحياد محض خرافـةـ، فعلـىـ سـبـيلـ المـثالـ.. يوجد من مفكـريـ الغـربـ «ـنـعـومـ شـوـمـسـكـيـ»ـ، وهو يـهـودـيـ وـصـلـ إلىـ هـذـهـ الـدـرـجـةـ مـنـ التـسـاميـ وـتـحـقـيقـ النـزـعـةـ الـإـنـسـانـيـةـ؛ـ بـحـيثـ يـدـافـعـ عـنـ القـضـيـةـ الـفـلـسـطـيـنـيـةـ،ـ أوـ أيـ قـضـيـةـ أـخـرىـ فيـ الـعـالـمـ رـبـماـ أـكـثـرـ مـنـ أـصـحـابـ الـقـضـيـةـ.

ومثال آخر: أرنولد توينبيـ. وهو ابن الحضارة الغـربيـةـ. يتقدـمـ لهـدمـ نـظـرـيـةـ مـركـزةـ الـحـضـارـةـ الـأـورـوـبـيـةـ.

وول ديوانت له عـبـارـةـ مشـهـورـةـ تعـبـرـ عنـ وـاقـعـناـ الـراـهـنـ عنـ أـنـ الـحـضـارـةـ الـأـورـوـبـيـةـ اـبـنـةـ مـدـلـلـةـ لـآـسـيـاـ وـإـفـرـيـقـيـاـ. فالـتـجـرـدـ وـالـحـيـادـ يـوـجـدـانـ عـنـدـمـاـ يـتـجاـزـوـزـ الـمـؤـرـخـ الـحـزـازـاتـ وـالـعـصـبـيـاتـ.

فـابـنـ عـربـيـ .ـ مـثـلاـ .ـ كـمـتصـوـفـ عـرـفـانـيـ تـسـامـيـ حـتـىـ فـوـقـ الـأـدـيـانـ وـغـلـبـ

قضية الإنسان، ولا يحدث هذا إلا في طور مزدهر من الحضارات، وللأسف دوماً يكون هؤلاء قلة محدودة.

بورديو . مثلاً . رغم أنه عاش مرحلة الاستعمار الفرنسي للجزائر، لكن أفكاره وحتى معيشته أثر أن تكون في الجزائر نفسها، كان في ذلك الوقت صوتاً نشازاً وسط المفكّرين والسياسيين الفرنسيين الذي كانوا يقولون بفرنسا الشمال الإفريقي، غالباً ما يصطدم أصحاب هذه الرؤى السامية مع الساسة، وإن شذ بعضهم: مثل ديجدول الذي فاجأ العقلية الاستعمارية بتحرير الجزائر.

ادريس هاني: كتبتم عن أسطورة ابن خلدون والمبالغات التي أحاطت بتاريخه. هل ما زلت على موقفكم؟ ما هي مقولات ابن خلدون أو بالأحرى سرقاته؟

الدكتور إسماعيل: نعم ما زلت مصرّاً، لا لشيء إلا لأنّ كُلَّ ما كُتب عن الموضوع لم يتمكّن من دحض مقولتنا هذه. فجُلُّ الكتابات كُتبت من منطلق الصدمة، صدمة هدم الثابت أو المتوازن، فكانت انفعاليةً وعاطفيةً أكثر منها علميةً. ومن حسن الحظ أنه بعد انتفاضة هذه الحالة وبعد البحث والدرس ظهرت كتابات علمية ترسّخ مقولتنا، بل تضيف إليها قرائن جديدةً.

فمثلاً.. كتب الأستاذ محمد أسعد نظامي - وهو سوري يعمل في جامعة باريس - بحثاً معمقاً أثبت فيه أنَّ علم العمارة عند ابن خلدون منقول برمته عن أرسطو؛ إذ أضاف قرائن جديدةً عن السرقات الخلدونية.

بل وقبله وقبلي أنا كتب كراشكوفسكي في الثلاثينيات من القرن الماضي عن الأدب والجغرافيا عن أنَّ ما عند ابن خلدون مأخوذ عن أرسطو وإخوان الصفا. وهناك أصوات أخرى عربية - مثل علي الوردي وطه حسين - قد كشفوا عن بعض سرقات ابن خلدون. ما قمنا به نحن بعد دراسة ثقافية ومقارنة للنصوص أثبتنا أنَّ كُلَّ الآراء العظيمة التي نسبت لابن خلدون وادعى هو نفسه أنها جاءته عن الوحي منقولة عن إخوان الصفا.

كما أثبتت تلميذة لنا جزائرية أنَّ ما كتبه ابن خلدون بقصد موضوع النظم منقول بنصه عن كتاب قدامة بن جعفر. فإذا كان لنا من دور فهو الكشف عن قضية السرقات في التراث العربي وأي تراث إنساني آخر.

إدريس هاني: هل تعتقدون بأن السياسة الفكرية القائمة على الاختزال وأسلطة المعرفة هي لازمة للعقل العربي؟ وهل نحن ضحايا الرشدية في ابتكاراتها الرينانية كما تورطنا في الخلدونية في ابتكاراتها الروزنطالية. من يصنع أوهامنا؟

الدكتور إسماعيل: ثقافة الاختزال بالنسبة للغرب شيء طبيعي بعد أن درسوا واقعهم وتاريخهم إلى درجة من الاتفاق حول الثوابت، فثقافة الاختزال لهم أمر طبيعي بعد أن أصبح تراثهم بعد الفحص والدرس وصل إلى المرحلة البديهية. لكن وضعنا مختلف؛ فتراثنا . رغم ما كتب فيه . لا يتفق اثنان في تقويم موضوع بعينه، فلا زلتا لم تتجاوزا مرحلة الوصف، أما التحليل والتأويل، فهي سابقة لأوانها.

ومن ثم هذا التراث الغزير لا بد من بحث تفصيلاته وجزئياته، لا لأن تختزله في مقولات، خصوصاً وأنها (صناعة أجنبية).

أن نصل في بحث التراث العربي إلى مرحلة البديهية، لا بد من أن تسبقه مراحل طويلة مثل المرحلة الاستقرائية والمرحلة الاستباطية، ويسبق ذلك كلها مرحلة التثبت والتحقق من الجزئيات؛ فأنت لا تستطيع أن تؤسس أي تصورات علمية عن تراث زاخر وما زالت وثائقه موضع خلاف.

أما بالنسبة لكوننا ضحايا الرشدية في تصورها الريناني: فأجزم بأننا لم نصل بعد إلى درجة من فهم ابن رشد أو لأي درجة من وعيه. فإن ابن رشد حسم قضايا كثيرة . مثل قضية العقل والطريق إلى اليقين، قضية العلاقة بين الدين والعلم . حسمها ابن رشد جميماً، ومثل مقولته عن أممية الحضارة وغيرها من القضايا والنتائج المهمة التي لم يستطع معظمنا تفهمها بعد.

ولي بحث قدّمه قبل ثلاث سنوات لمؤتمر للمجلس الأعلى للثقافة المصري (نحو خطاب ثقافي عربي جديد)، وكان عنوان البحث «الاسترشاد بالرشدية في صياغة خطاب ثقافي عربي جديد».

ابن رشد ما زال حلماً، وقيمة ظلت مهدورة في عصره، وحتى الآن هناك من يتهمون ابن رشد، رغم أثره الفكري المسيحي واليهودي على السواء، ولم نعرف قيمته إلا بعد حديث الغرب عنه.

إدريس هاني: إلى أي مدى يستطيع مؤرخ كالدكتور محمود إسماعيل أن يحفظ بمسافة عقائدية في العملية التاريخية؟

الدكتور إسماعيل: كثيرون - للأسف - يخلطون بين من يدين بالماركسية وبين جانب وكم علم أصولي لقراءة واقع المجتمعات في تطورها وبين تدينه من عدمه.

ماركس لم يفهم من معظم من قرأه من العرب؛ فالفلسفة الماركسيّة تختلف عن أي فلسفة أخرى في كونها فلسفَةً أرضيَّةً بحتة.

أما عدم الميتافيزيقا (ما يتعلّق بالعقيدة) فليس من شأنها؛ فهي رصدت المجتمع، وتستطيع تحليله وتقسيمه بعيداً عن الميتافيزيقا، فهي من هذه الزاوية علم ماركسيولوجي يدرس المجتمع والصراع وحركة التاريخ والصيرورة البشرية، كلّ هذه الأشياء علم.

ولم يستطع حتى المفكرون الرأسماليون أن يسلموا بهذا العلم.. فرأيت
ميلز . مثلاً . يقول: إن الذي يتتجاهل المادة التاريخية في قراءة واقع ما ، لا
يستطيع أن يرى ما هو أبعد من أقدامه.

والاستعمار الغربي نفسه أفاد من الماركسية للتعامل مع الطبقات داخل المجتمعات. أما قضية الإيمان: فهي علاقة بين الإنسان وربه، وأنا في غنى عن تقبيل علاقتي بالله الخاصة وال العامة. فالخلط بين علاقة الإنسان بربه إيماناً أو إلحاداً وبين تبنيه لنظرية ما في العلم خلط لا مبرر له أصلاً.

أدريس هاني: يجب أن نكتب تاريخنا باستمرار - هكذا أكدت أحدث المدارس التاريخية وفي مقدمتها الأناليل. هل كتب التاريخ العربي مرتين على الأرض؟

الدكتور إسماعيل: بالنسبة للتاريخ الأوروبي قد استقر تماماً على الأقل فيما يتعلق بأصولياته، فأصبح علماً بديهيّاً كما قلنا من قبل، لكن تاريخنا يحتاج إلى كتابة، فأرّعُم أنَّ كُلَّ ما كُتب يفتقر إلى العلمية، وهذا يتعلق بالمسألة المنهجية والرؤى. فمن حيث المنهجية: ما زال مدلول كلمة منهج ضبابيّاً عند من يتداوّلها؛ لذلك فإنَّ هذا التاريخ العربي حافل بالخرافات، وهو في أساسه تاريخ منافق، وهو ليس علمًا.

أما قضية الرؤية: فهي رؤية دينية، بمعنى لا تعلل ولا تحلل، بل تتجاوز

سلسلة العلل التي تتعلق بظاهرة ما إلى العلة الأولى وهي الله سبحانه وتعالى؛ فالتأريخ كله من صنع العناية الإلهية. وهذا الحكم مصادرة على البحث والدرس، ومن ثم فهو يحتاج إلى دراسة من الأصوليات. وهذه الدراسة لا بد من أن تتم على مراحل عدة: المرحلة الأولى جمع الأخبار، ثم نقد المراجعات والتحقق من صحة المروي، ثم الرؤية الأفقية لعقب الصيرورة والتحولات واستخلاص معالم عن طريق الاستقراء والوصول إلى تفسير للكلمات، بما يقود أخيراً إلى مرحلة البديهة المستقرة.

كما أنه حتى بعد الوصول إلى هذه المرحلة يمكن أن يعاد كتابة التاريخ إذا ما توفرت نصوص جديدة، وهنا تبرز قيمة الوثائق.

فمثلاً يوجد في متحف فيينا ما يقرب من ٢ مليون وثيقة عربية لم تظهر للنور بعد، وظهورها ودراستها سيسصحّ الأخطاء ويوطد التاريخ الإسلامي باعتباره تفاعلات بشّر يخطئون ويصيرون، وليس تاريخاً مقدسأً كما يزعمون.

إدريس هاني: هل توهون بأن التاريخ يعيد نفسه؟

الدكتور إسماعيل: قديماً قال الفيلسوف: إنك لن تتضع قدمك في النهر مرتين؛ فماء النهر يجري. وقانون الحركة سُنة حياة البشر، ومن ثم فإنّ التاريخ لا يعيد نفسه، لكن الذي يحدث أنّ البشرية في حركة صيرورتها المتحولة والمتقدمة إلى الأمام قد تختلف تحت ظروف معينة، فكأنّها تعيش عصراً تاريخياً تجاوزتها البشرية من قبل، فيقولون: التاريخ يعيد نفسه.

أو كنتيجة . أيضاً . لخلل ما في بنية بعض المجتمعات المعاصرة تفضي إلى التخلف، فتصير ظروفها الموضوعية الآنية أشبه بظروف مجتمعات سابقة كانت تعيش في نفس الحال، فيسارع البعض ويقول: التاريخ يعيد نفسه. هذا على صعيد الفهم العام.

وإن كانت هناك بعض النظريات تقول: هناك أدوار في حركة التاريخ يتطور فيها التاريخ يتتجاوز فيها ثم ينتقض فيعود إلى الحالة الأولى، فتقول: إذن التاريخ يعيد نفسه. التاريخ . باختصار . هو نتيجة فعاليات بشّر، وهذه الفعاليات في درجاتها تشكّل الآليات الحاكمة للواقع التاريخي.

ادريس هاني: كيف تقييمون مواقف برنارد لويس من التاريخ العربي والإسلامي؟

الدكتور إسماعيل: هذا السؤال صيغ في فترة اتهم فيها برنارد لويس - وهو مؤرخ من أصل يهودي درس في جامعات إنجلترا، والآن في أمريكا . بأنه من وراء الحملة الضاربة حالياً على الإسلام والمسلمين، تلك التي عبر عنها بعض تلامذته مثل هنتفتون.

ولكن من وجهة نظري إنَّ لويس في كتاباته . بوجه عام . يُعدَّ من أهم المستشرقين الذين عالجوا التاريخ الإسلامي بقدر كبير من الموضوعية والذكاء والفهم والوعي . وحسبه أنه صَحَّحَ الكثير من النظريات الخاطئة، مثل ما جرى وجري إلى الآن من اتهام المذهب الإسلامي بأنَّ مؤسسه من أصل يهودي، فنَّدَ لويس هذا الزعم، وقدَّمَ نظريةً مهمةً في كتابه (أصول إسماعيلية) .. هذا من جانب.

من جانب آخر بعدَ لويس من المستشرقين الذين عالجوا تاريخ الحركات المعارضة في تاريخ الإسلام بنظرة علمية ورؤية اجتماعية بل وطبقية، وفي كتابه الصغير (العرب في التاريخ) يُعدَّ من المستشرقين القلائل الذين فلسفوا التاريخ العربي الإسلامي بقدر كبير من الموضوعية.

أما عن حرفيته كمؤرخ: فهو متميِّز أنَّ لم يكن متفرداً، وأنذر أنه منذ منتصف القرن الماضي كان الكثيرون من الدارسين العرب المتخصصين في التاريخ الإسلامي يتهاfتون على التلمذ عليه، مثل: سهيل زكار والفاروق عمر وغيرهما كثيرون. عقلية كهذه كان من الضروري أن يستفيد منه الساسة الأميركيون كخبر ل شأنه في التاريخ العربي الوسيط والمعاصر..

وقدْ قرأت له أخيراً عرضاً لأحد كتبه في بعض الدوريات العربية تثبت أنه ما زال على موقفه هذا. أما أن يوظف سرّياً لتبرير المشروع الأميركي فهذا لا علم لي به.

ادريس هاني: لقد استهان فلهاوزن بمفهوم عربي كبير كاليعقوبي مقدماً ومرجحا كل روايات أبي مخنف.. هل لكم أن تشرحوها أو ليات التحيز الاستشراقي؟

الدكتور إسماعيل: فلهاوزن مستشرق ألماني متميِّز، كتب عن المعارضة

في الإسلام، وله رؤية خاصة في كتابة التاريخ مفادها عزل التاريخ السياسي عن الواقع الاجتماعي والاقتصادي؛ إذ يؤمن بأنَّ التاريخ السياسي له قوانينه الحاكمة والثاوية فيه نفسه، بمعنى أنه معزول عن أية معطيات أخرى..

ورغم أننا لا نرى هذا الرأي، ولكن المجتمعات المستبدة تدار سياساتها من خلال الحُكَّام، بحيث يصدق حُكْم فلهاوزن في هذا الصدد.

أما بالنسبة لاستهانته باليعقوبي: فالمقارنة بين اليعقوبي وأبي مخنف غير ذات موضوع؛ لأنَّ أبو مخنف أخباري، بمعنى أنه جامع روایات ليس إلا. وفي هذا الصددأشهد بأنَّ كتابه عن أخبار صفين كان زاخراً بمعلومات وتفاصيل ليس لها نظير عند غيره، وإنْ كان منحاً لعلٍّي في أحداث الفتنة الكبرى، وأنا شخصياً منحازاً لعلٍّي؛ لأنَّ التاريخ كُتب في ظل نُظم معارضة الشيعة. واليعقوبي كان شيعي الهوى، ولكنه من خيرة رواد تاريخ الإسلام.

وتكمِّن أهميته في الآتي:

- ١- أنه عدل عن منهج التاريخ الحولي وقدَّم التاريخ كمواضيعات متكاملة.
 - ٢- أنه تجاوز مرحلة الرصد والوصف إلى مرحلة التحليل والتعليق مع قدر كبير من الموضوعية.
 - ٣- أنه جغرافيٌ ومؤرخٌ في الوقت نفسه؛ فقد شاهد الأقاليم التي كتب عنها، وكان من الذين اتبعوا آلية النقد في التحقق من صدق الرواية. وهناك نص له يقول فيه: لقد كثرت أسفاري، وكنت إذا نزلت بأرض أو إقليم أسئل علماء أهله الواحد بعد الآخر، ولا أكتب إلا ما أتحقق من صدقه.
 - ٤- أنه أول من كتب مجال علم (الجيوپوليتیقا) الجغرافيا السياسية، وكان حجَّةً متردداً بالكتابة عن طبيعة تاريخ تخوم الدول بين بعضها البعض.
- وأخيراً.. فإنه أول من فطن . ربما بعد المسعودي . إلى أنَّ الموضوع التاريخي يتتجاوز الجوانب السياسية والعسكرية، فاهتم بمعلومات تتعلق بالتاريخ الاقتصادي والعقائدي.

وبحسب علمي إنَّ فلهاوزن لمْ يستهن باليعقوبي أبداً.

إدريس هاني: كيف تقرأون استشراق إدوارد سعيد؟

الدكتور إسماعيل: الحق أنَّ كتاب «الاستشراق» لإدوارد سعيد من أهم نصوص الكتابات في تقويم حركة الاستشراق، وإذا تمحورت أهميته حول فضح دعاوى الاستشراق وربطه بالحركة الاستعمارية الأوروبية وهذه الفكرة معروفة قبل إدوارد سعيد.

أما الأهمية الحقيقية، فتكمن في أنه أول نص عربي يعالج موضوع طبيعة الاستشراق المعاصر، كاشفاً عن فرقٍ بينَ بينه وبينه الاستشراق الكلاسيكي القائم على الدراسات التاريخية، ويكشفُ كيف تحولَ هذا الاستشراق الجديد إلى أسلوبٍ في جمع المعلومات تقوم بها أجهزة الاستخبارات مباشرةً.

وفي هذا الصدد قدم معلومات ضافيةً تمَّ عن جهود كبيرةٍ كرسها لإثبات تلك المقوله. ويعزى إليه الفضل. أيضاً. في كتابه «تفطية الإسلام» فضل السبق في استشراف ما يجري الآن تحت دعوى العولمة والتحامل المفزع على الإسلام والمسلمين؛ حيث كشفَ قبل انهيار الكتلة الشرقية عن أنَّ الإسلام هو العدو القادم للغرب.

أخيراً.. وسط هذه الموجة المتحاملة على الإسلام كشف لنا عن دور مسكونٍ عنه عن بعض الكتابات الأكاديمية الهمامة التي تعاملت عنها الدوائر الأمريكية، والتي تفنَّد الدعاوى العدائية ضد الإسلام والمسلمين، مثل الثورة الإيرانية والكتب الأكاديمية التي كُتِبَت عنها، بخلاف الرؤى التي تبنَّاها الساسة في أمريكا.

إدريس هاني: هل من كلمة أخيرة...

الدكتور إسماعيل: إنَّ المؤرخ قاضٍ، وقاضٍ منصفٍ أيضاً، وعليه أنْ يتجرَّد من إيديولوجيته عند بحث الظاهرة التاريخية أو رصد وتاريخ الحوادث الماضوية، وكتابة التاريخ العربي تحتاج إلى مَنْ يعطيه البديهية، وهذا دور المؤرخين القضاة.